نظرة الاسلام للانسان

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

نريد أن نعرض هنا نماذج من دراسات الباحثين الغربيين عن الإسلام وعن مشاهير علمائه ومصلحيه. وسنأخذ للنموذج الأول مقالا لعالم أمريكى عن «نظرة الإسلام للإنسان» وأثر تلك النظرة فى التفكير الاجتماعى والنظرية السياسية.

إن موضوع الإنسان - ومصيره ومكانه من الوجود - قد شغل أذهان المفكرين الغربيين لما له من صلة بنظرات السياسة والأخلاق، ولما له من علاقة بفلسفات الحكم والاجتماع فى المعسكرات السياسية المختلفة.

ولهذا الموضوع مكان بارز فى التفكير الإسلامى، وأسسه الأولى مستمدة من نصوص القرآن الكريم: فهى تقرر أن الإنسان مدين بوجوده لخالقه الذى أنشأه وصوره، ونفخ فيه من روحه، وفضله على سائر الكائنات. وهذا الكائن المفضل أبدعته يد القدرة من ماء وطين، فهو من هذه الوجهة أرضى المادة والتكوين. وهو بما نفخ الله فيه من روحه كائن يمت إلى السماء بسبب. وقد شرفه الله بأن جعله خليفة فى الأرض، وأخضع له سائر المخلوقات، وزودة بالعقل والإرادة، وأعطاه القدرة على تكييف السلوك، والحكم على الأشياء، ومعرفة الخير والشر، والنافع والضار، وكل أولئك مقرر صريح فى نصوص القرآن.

على أن هناك ناحية من الإنسان حار فى أمرها المفكرون طوال العصور، وهى مسألة حرية الفرد وإرادته بجانب القانون الإلهى، وما جرى به القلم من قضاء وقدر. وقد أخذ علماء المسلمين بنصيبهم من

بحث هذه الناحية ، ورجعوا فيها إلى نصوص القرآن ، فوجدوها من جهة تؤكد سلطان الله المطلق ، وأنه لايحدث فى ملكه إلا ما أراد ، وأن مشيئته الأزلية لابد نافذة ، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ووجدوها من جهة أخرى تؤكد جانب الحرية والمسئولية فى الإنسان : فكل إمرىء مسئول أمام الله عن أفكاره وأعماله وأحكامه ، ولا تستقيم المسئولية إلا مع حرية الاختيار . ومعنى هذا أن الله يرشد الانسان عن طريق الوحى والنبوات والفطر السليمة إلى المبادىء الأخلاقية العامة المنبعثة عن الإرادة الإلهية ، وأن الإنسان بما أودع الله فيه من قوة فى استطاعته أن يختار بين أن يتقبل هدى الله أو أن يتحول عنه .

هذا ومن الأفكار الأساسية فى الإسلام فكرة المساواة الكاملة بين بنى البشر ، إذ هم جميعاً من خلق الله ، فلا يفضل إنسان إنسانا بشرف مولده أو نوع وظيفته ، أو جاهه فى قومه ، وليس فى الإسلام جماعات ممتازة ، ولا أمم مختارة . والطريقة الوحيدة التى يمكن أن يتميز بها بعض الناس عن بعض هى كيفية استجابتهم لله ، وقبولهم لهديه ، وموقفهم من وحيه .

هذه الفكرة تضمنتها أصول الاسلام وشعائره التى ترمى إلى أن يفقه الناس أنهم جميعاً سواسية أمام الله : ففى الصلاه يقف العظيم والصغير متجاورين فى عبادة الله ، وفى الصوم يستشعر الناس غنيهم وفقيرهم الخضوع لله ، ويدركون قسوة الجوع ومرارة الحرمان ، وفى الحج يتجرد المسلمون إلا من لبوس من قطعة واحدة يشعر بالوحـــدة والمساواة ، ويقضى على التميز الطبقى والمالى اللذين يظهران عادة فيما يلبس الناس أما الزكاة فتبرز الاحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان .

وهناك من أصول التشريع الاسلامى أصل يمكن أن يكون له أثره فى إخماد النزعات الاستبدادية عند بعض الحكام والفقهاء ، ذلك هو مبدأ الاجماع الذى يعتبر مظهراً للإرادة العامة . والذى يحمل فى طياته بذرة مهمة من بذور الديموقراطية .

هذه النواحى التى ذكرناها إذن تؤكد أهمية الفرد فى نظر الاسلام ،

من حيث هو موجود بضىء بين جوانحه قبس من نور السماء ، ومن حيث هو كائن حر ذو إرادة وعقل واختيار ، ومن حيث هو ذات لها قيمتها وأهميتها التى لا تتوقف على مال أو منصب أو جاه .

وبجوار هذه الأهمية التى خلعها الاسلام على الفرد ، سار العرف الاسلامى على تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة . ويمنح الناس وسيلة للترابط وإحساساً بالاتحاد لا يوجدان أحيانا فى التصورات الغربية الحديثة للإنسان. ذلك هو ما يعرف عند المسلمين بدار الاسلام ، وهو يضفى على كل مسلم شعوراً بالترابط الوجدانى مع كل مسلم آخر ، ويهب له إحساساً بالأمن . ذلك أنه يشعر بكونه فى داره أينما سار فى بقعة من تلك البقاع الشاسعة المتناثرة من الساحل الأطلنطى لأفريقيا إلى قلب المحيط الهادى ، حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة . وهذا من شأنه أن يخلق — لو أحسن فهمه واستخدامه — روحا جماعية ، ووحدة بين شعوب لها أهميتها البالغة . ومن الملاحظ أن هذه الروح تظهر قوى ما تظهر عند ما يهدد العالم الاسلامى — أو أى قسم من أقسامه — مصدر غير إسلامى ، وإنها عرضة أن تنسى حين لا يهدد المجموع خطر وشيك من الخارج . ومع ذلك فهى قوة حقيقية يمكن أن تصبح عاملا له أثره فى حياة العالم الإسلامى كله .

هذه الآراء التى نذكرها هنا عن موقف الإسلام من الفرد ومن الجماعة الإنسانية تلخيص — نقلناه بتصرف — لما أورده العالم المسيحى الأمريكى الذى أشرنا إليه فى أول الحديث ، وقصدنا من إيراده أن يتنبه المسلمون — وأخص شبابهم — إلى ما فى دينهم من سماحة وسمو ، وإلى ما فى مبادئه من أصالة وعمق ، وأن يستمعوا لهذه الشهادة المنصفة للإسلام يسجلها عالم غير مسلم . مستدلا عليها من نصوص القرآن ودراسات العلماء الماضين ، وهو يتابع موضوعه إلى العصر الحاضر ، فيحلل آراء بعض المحدثين من العلماء والمفكرين المسلمين ، من أمثال المصلح المصرى «محمد عبده» والفيلسوف الباكستانى «محمد إقبال» ، اللذين يتفقان فى أن كلا منهما يؤكد استقلال الإرادة الإنسانية . ويبرز الباحث الأمريكى عناية الشيخ محمد عبده بأن يصحح مادرج عليه الغربيون

من نسبة أى جمود أو تأخر فى البلاد الاسلامية إلى عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر . صحيح أن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالتسليم القائم على الاعتقاد فى القضاء الإلهى ، ولكن مفكرى الإسلام من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الفرد فى الاختيار .

ويقرر محمد عبده فى رسالة التوحيد أن الإنسان يدرك أعماله الاختيارية ، ويزن عواقبها بعقله ، وينسب إليها القيم عن طريق إرادته ، ويقوم بها بدافع فى نفسه ، عالما أن هناك قوة — أعظم من نفسه — هو مسئول أمامها ، وأن هدى الله ميسور لمن يجاهد فى سبيل الاهتداء إلى الحق والخير والصواب ، مصداقا لقوله تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة ، كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية ، والناس قادرون على إدراك هذه السنن الإلهية بالتدبر ، وعن طريق الوحى ، ولكنهم أحرار حين يعملون بها أو يخرجون عليها . والأمم تصل إلى الرفعة أو تقصر دونها حسب اختباراتها الأخلاقية الإرادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقى العام لسياساتها الاجتماعية . وقد وهب الله للإنسان الحس والعقل ، وفى هذين الكفاية ليستكشف ما هو ضرورى للمحافظة على النفس ، وليبين الصواب من الخطأ ، ووهب له العاطفة والشعور اللذين يدفعان إدراكه العقلى ، ووهب له الإرادة الحرة ليتصرف فيما يصل إليه عقله وتوجه إليه عاطفته .

ويصل الباحث من كل هذا التحليل إلى نتائج عامة أهمها أن الحضارة الإسلامية ذات أساس متين يمكنه من الاصلاح فى ميادين السياسة الاجتماعية ، فإن ما فى نظام الإسلام الأساسى من مساواة ومن ديموقراطية يبعث على ضروب من المشروعات ترمى إلى تخفيف الحرمان والضعف اللذين يعانيهما أى طائفة داخل الجماعة . وحيثما أنتج النظام الطبقى للمجتمع أقلية غنية وأغلبية فقيرة ، فإن المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الأخلاقية الأساسية فى الاسلام فى الوصول إلى تشريع يكون من شأنه رفع مستوى المعيشة ومنح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الاجتماعى .

أما فى الميدان السياسى فإن العالم الاسلامى فى وضع يسمح له أن ينمى فلسفته الخاصة دون أن يدفعه التقليد الأعمى إلى اتباع نظريات سياسية واقتصادية تجلب إليه من هذا المعسكر أو ذاك . والأمم الاسلامية بما بينها من أواصر الوحدة والترابط تستطيع أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع فاضل من المجتمع العالمى ، ومن العاملين على إيجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى .

الدكتور محمد خلف الله أحمد
عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

أصول التصوف

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن التصوف فقال :

« ... أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول أبو القاسم الجنيد :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

يوم عرفـــة

يباهى الله بأهل الأرض أهل السماء

. . . عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة فقال رجل : هن أفضل أم من عدتهن جهاداً فى سبيل الله قال : هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيباهى بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثاً غبراً ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتى ، ولم يروا عذابى ، فلم ير يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة »

* * *

وروى ابن المبارك عن سفيان الثورى ، عن الزبير بن على ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : وقف النبى صلى الله عليه وسلم بعرفات ، وقد كادت الشمس أن تثوب فقال :

يا بلال أنصت لى الناس . فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنصت الناس فقال :

معشر الناس ، أتانى جبريل عليه السلام آنفا فأقرأنى من ربى السلام وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام وضمن عنهم التبعات .

فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله هذا لنا خاصة ؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر : كثر خير الله وطاب .